﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العجزُ عن معارضةِ القرآنِ أو قليلٍ منهُ، دليلٌ على أنَّه مُنزَّلٌ بعلمِ اللهِ؛ لإقناعِ مَن يُسلمُ

لمّا دعاهُم إلى مُعارضةِ عشرِ سورٍ مُفترياتٍ؛ ليكونَ حُجّةً عليهم، قرّرَ في هذه الآيةِ هَذا الاحتِجاجَ مِن أنَّ العَجزَ عَنِ المُعارَضةِ دليلٌ على أنَّ القرآنَ مِنَ العِلمِ الإلَهيِّ؛ فقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[1].

وأيضًا لمّا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ [هود: 13] فرَّعَ عليهِ هذه الآيةَ؛ ليكونَ أثبتَ في قيامِ الحجّةِ عليهم؛ أي: فإنْ لم يَستَجِبْ لكُم مَن تَدعوهُم، فأنتُم أعجَزُ مِنهُم؛ لأنَّكُم ما تَدعونَهُم إلّا حينَ تَشعُرونَ بعَجزِكُم دونَ مُعاونٍ، فلا جَرَمَ يكونُ عَجزُ هَؤلاءِ مُوقِعًا في يَأسِ الدَّاعينَ مِنَ الإتيانِ بعَشرِ سُوَرٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العلمُ بأنَّ القرآنَ مِن عندِ اللهِ يقتضي العلمَ بوحدانيّتِهِ تعالى والإسلامَ له

فإنْ لم يستجبْ لكُم - أيُّها المشركونَ - مَن تدعونَ مِن دونِ اللهِ إلى أنْ يأتوا بعشرِ سوَرٍ مثلِ هذا القرآنِ مُفترياتٍ، ولم تطيقوا أنتُم وهُم أنْ تأتوا بذلكَ، فاعلموا وأيقنوا أنَّه إنّما أُنزِلَ القرآنُ بعلمِ اللهِ وإذنِهِ، وأنَّ محمَّدًا لم يفتَرِهِ، ولا يقدرُ أنْ يفتريَهُ، وأيقنوا أيضًا أنْ لا مَعبودَ يستحقُّ الألوهيَّةَ على الخلقِ إلّا اللهُ، فهل أنتُم مُنقادونَ للهِ، مُخلِصونَ لهُ في العبادةِ[3].

ويحتملُ المعنى: فإنْ لم يستجبْ هؤلاء المشركونَ لكُم - أيّها

(1) رضا، تفسير المنار: 12/39.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155.

الرّسولُ ومَن آمنَ معَكَ – لِما تدعونَهُم إليه؛ لِعَجزِ الجميعِ عن ذلكَ، ازدادوا علمًا ويقينًا أنَّ هذا القرآنَ إنَّما أنزلَهُ اللّه على رسولِهِ بعلمِهِ، وليسَ مِن قولِ البشرِ، وازدادوا يقينًا أنْ لا إلهَ يُعبَدُ بحقٍّ إلّا اللّه، فهل أنتُم ثابتونَ على إسلامِكُم، مُلتزِمون فيهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾:

جاءتِ الفاءُ لِلتّفريعِ على الطَّلبِ في قولِهِ: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المُخاطَبَ ينتظرُ ما يحصلُ بعدَ أنْ يدعوا مَنِ استطاعوا أنْ يعينَهُم مِن دونِ اللّه.

عدمُ الاستجابةِ للبلاغِ، لا يثني الدّاعيةَ عنِ اليقينِ بنصرِ اللهِ، عاجلًا أو آجلًا

دلالةُ الشّرطِ في: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾:

تصديرُ الشَّرطِ بكلمةِ الشَّكِّ ﴿فَإِلَّمْ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ حقَّ استجابتِهِم أن يكونَ ضعيفًا مَشكوكَ الوقوعِ، وإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ مع الجزمِ بعدمِ الاستجابةِ مِن جهةِ مَن يدعونَهُ؛ إمّا أن يكونَ تهكُّمًا بهم وتسجيلًا عليهم بكمالِ سخافةِ العقلِ، وإمّا أنْ يكونَ بناءً على حسبِ ظنِّهِم، فإنَّ العجزَ قبلَ التَّدبُّرِ في بلاغتِهِ لم يكُنْ مُحقَّقًا عندَهُم[2].

التّهكُّمُ بمَن يدّعي الافتراءَ؛ لِسخافةِ عقلِهِ، وعظيمِ جهلِهِ

دلالةُ النّفي بِ الأداةِ ﴿فَإِلَّمْ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بأداةِ النّفي (لم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أنَّ نفيَ استجابتِهِم مَقطوعٌ بها، ولمّا سبقَ حرفُ النّفي (إنْ) الشّرطيّة الدّالّ على المستقبلِ دلَّ على استمرارِ نفي استجابتِهِم في الماضي والحالِ والمُستقبلِ على سبيلِ القطعِ؛ لِيفيدَ عدمَ قدرتِهِم على المعارضةِ.

القطعُ باستمرارِ مُعارضةِ القرآنِ، وأنّ نفيَ الاستجابةِ هو حالُ الكافرينَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/262، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.

مناسبةُ الاكتفاءِ بنفي الاستجابةِ:

الاكتفاءُ بنفي الاستجابةِ إيذانٌ بالعَجزِ عن المعارضةِ

لمّا قالَ تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وكانَ الأمرُ يقتضي التّفريعَ باحتمالِ الاستجابةِ وعدمِها، كانَ الاكتفاءُ بنفي استجابتِهم إيذانًا بعجزِ كلِّ مَن يدعونَهُم إلى المعاونةِ عنِ الإتيانِ بعشرِ سُورٍ مُفترياتٍ؛ أي: لا يحصُلُ سوى انتفاءِ الاستجابةِ، ففيهِ إشارةٌ إلى الإخبارِ بالغيبِ عنِ المُستقبلِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تَحقُّقُ إعجازِ القرآنِ، وظهورُ التّحدِّي على كمالِهِ

عُبِّرَ عنِ الفعلِ بنفي الاستجابةِ؛ إذ الظّاهرُ أن يقولَ (فإنْ لم تَفعلوا) كما في سورةِ البقرةِ - على القولِ بأنَّ الخطابَ للرّسولِ ﷺ - إيماءً إلى أنَّه ﷺ كانَ على كمالِ أمنٍ من أمرِهِ، وأنَّ أمرَهُ لَهُم بالإتيانِ بمثلِهِ دعاءٌ لَهُم إلى أمرٍ يريدُ وقوعَهُ؛ ليتحقَّقَ إعجازُ القرآنِ، ويظهرَ التّحدِّي على كمالِهِ[1].

دلالةُ الخطابِ في: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

حقُّ المؤمنين أنْ لا ينفكّوا عن نصرةِ رسولِ اللهِ ودينِهِ

لمّا اشتملَتِ الآيَةُ المُتَقدِّمَةُ على خِطابَينِ: أحدُهُما: خِطابُ الكُفّارِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والثّاني: خِطابُ الرَّسولِ المُصدَّرُ بلفظِ ﴿قُلۡ﴾، وهو قولُهُ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ فلمّا أتبعَهُ بقولِهِ: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ احتَمَلَ أن يَكونَ المُرادُ أنَّ الكُفّارَ لَم يَستَجيبوا في المُعارَضةِ لِتَعَذُّرِها عليهِم، واحتَمَلَ أنَّ مَن يَدعونَهُ مِن دونِ اللّه لم يَستجيبوا، فلهذا السَّببِ اختلفَ المُفسِّرونَ على قولَينِ في توجيهِ الخطابِ في الآيَةِ: فيحتملُ الخطابُ في ﴿لَكُمۡ﴾ أن يكونَ خطابَ النّبيِّ ﷺ للكفّارِ، فيكونُ مِن تمامِ مَقولِ ﴿قُلۡ﴾، وضميرُ (الواو) في ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ يعودُ إلى الاسمِ الموصولِ في ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ أي: فإنْ لم يستجبْ مَن تدعونَهُ مِن دونِ اللّه إلى المعاونةِ على المُعارَضةِ ولا قَدرَ جميعُكُم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40.

عليها، فأذعنوا حينئذٍ، واعلموا أنَّه مِن عندِ اللّه، واعلموا عندَ ذلكَ أنْ لا إلهَ إلّا اللّه وحدَهُ، وذهبَ إلى هذا التّوجيهِ الطّبريُّ وابنُ عطيّة وأبو حيّان وغيرُهُم، ويحتملُ الخطابُ في ﴿لَكُمْ﴾ أن يكونَ خطابَ اللّه تعالى للرّسولِ ومَن معَهُ مِنَ المؤمنينَ، والواو في ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾ يعودُ إلى المُشركينَ، والتّقديرُ: فإنْ لَم يَستجيبوا لكَ ولِلمؤمنينَ؛ لأنّ رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين كانوا يَتحدّونَهُم، ففي صيغةِ الجمع إدخالٌ للمؤمنين؛ لِيكونوا مع الرّسولِ في التّحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّ المؤمنينَ أنْ لا ينفكّوا عنهُ ﷺ، وأنْ يُناصِبوا معهُ لمعارضةِ المُعارِضينَ، كما كانوا يفعلونَهُ في الجهادِ، وفيه إرشادٌ إلى أنَّ التّحدِّيَ ممّا يُوجِبُ رسوخَ إيمانِهم وقوّةَ يقينِهم فلا يَغفلونَ عنهُ، ولذلك رُتِّبَ عليه قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ كما سيأتي، أو أن يكونَ خطابَ اللّه تعالى لرسولِ اللّه ﷺ دونَ المؤمنينَ، ويكونَ الجمعُ لتعظيمِ رسولِ اللّه ﷺ، واختارَ هذا الوجهَ الزّمخشريُّ وغيرُهُ[1].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالاستجابةِ على الإجابةِ، إذ لم يقُلْ: (فإنْ لم يُجيبوكم)؛ لأنّ الاستجابةَ خاصّةٌ بتحصيلِ المطلوبِ، والإجابةَ بمعنى إعطاءِ الجوابِ، فتعمُّ الجوابَ بتحصيلِهِ أو دونِهِ[2]؛ فالمعنى: فإنْ لَم يستجيبوا بأنْ لم يحصِّلوا المطلوبَ بالإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ.

الاستجابةُ تحصيلُ المطلوبِ، فهي أقوى وأعمُّ مِنَ الإجابةِ

سببُ إيثارِ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾:

قد يُقالُ ما الشّيءُ الّذي لم يَستجيبوا فيه؟ وجوابُهُ التّقدير: (فإنْ لم يَستَجيبوا لَكُم في الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِ القرآنِ مُفترياتٍ)، وحَذَفَ هذا المُتعلَّقَ للإيجازِ بما دلَّ عليه السّياقُ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ

الإيجازُ ودلالةُ السّياقِ مِن بيانِ الدّلالةِ في الآيةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/442، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40.

عدمَ الاستجابةِ ديدنُهُم وعادتُهُم، فليسَ الأمرُ مُختصًّا في المعارضةِ بالقرآنِ وتحدِّيهم فيهِ.

توجيهُ المُتشابِهِ بين آيتي: سورة هود، والقَصص:

تحويلُ المُخاطَبةِ مِنَ الإفرادِ إلى الجمعِ تعظيمًا وتفخيمًا، ومُخاطَبةُ الرّسولِ في سورةِ القَصص

جاءَ الضّميرُ في هذه الآيةِ بصيغةِ الجمعِ فقالَ تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، وفي سورةِ القَصص قالَ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ﴾ [القصص: 50] جاءَ مُفردًا، ووجهُ جمعِ الخِطابِ هاهنا في قولِهِ: ﴿لَكُمْ﴾، وتوحيدِهِ في القَصَصِ في قولِهِ: ﴿لَكَ﴾، أنَّ ما في هذه السّورةِ خِطابٌ للرَّسولِ وللمؤمنينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ الجمعُ لتَعظيمِ رسولِ اللّه ﷺ، وقيلَ: لأنَّه خِطابٌ لِلكفّارِ، والفعلُ يَعودُ لـ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾، وأمّا ما في القَصصِ فهو خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والفِعلُ للكفّارِ، فناسبَ وضعُ كلٍّ ضمير سياقَهُ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

تقويةُ المعنى في نفوسِ المُخاطَبين، وتهديدُهُم بمغبّةِ الافتراءِ

إنْ كانَ الخطابُ لِلكفّارِ في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فيكونُ الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ إلى الخطابِ مِنَ الغيبةِ، والأصلُ: (فليَعلموا)؛ لِيناسبَ ما جاءَ في سياقِهِ في قولِهِ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، وفائدةُ الالتفاتِ تقويةُ المعنى في نفوسِ المُخاطَبينَ وتقريرُهُ؛ لمجيئِهِ في صيغةِ الخطابِ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى تهديدِهِم إنِ استمرّوا على قولِهِم بالافتراءِ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

ترتُّبُ حصولِ العلمِ بتوحيدِ اللهِ على العجزِ عن معارضةِ القرآنِ

أفادَتِ الفاءُ الواقعةُ في جوابِ الشّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ التَّرتُّبَ والسّببيّةَ، بمعنى يترتَّبُ على نفي الاستجابةِ على المعاونةِ وعدمِ قدرتِهِم على الإنزالِ وظهورِ عجزِهِم وجوبُ حصولِ العلمِ بأنَّ القرآنَ أُنزِلَ بعلمِ اللّه، والعلمُ بأنَّه لا إلهَ إلّا هو.

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 143.

الكناية والمجاز المُرسَل في ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الإيمانُ باللهِ يتبعُ العلمَ، وهو لازمٌ له، لا ينفكُّ عنه ولا ينفصمُ

إنْ كانَ المرادُ مِنَ العلمِ حقيقتَهُ، فيكونُ كنايةً عنِ الإيمانِ والتّصديقِ، فإنَّ الإيمانَ يتبعُ العلمَ، وهو لازمٌ لهُ، والمعنى: طَلَبُ علمِهم وطَلَبُ الإيمانِ بالقرآنِ وبتوحيدِ اللّه تعالى؛ لِما يَترتَّبُ على العلمِ بعجزِهم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ مِنَ الإيمانِ بالقرآنِ وبالتّوحيدِ، فتكونُ الكنايةُ هنا على إرادةِ المعنيين معًا، وعُبِّرَ به دونَ أن يقولَ: (فآمنوا)؛ للإشعارِ بأنَّ الإيمانَ مَبنيٌّ على العلمِ، ويحتملُ أن يكونَ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ على طريقِ المجازِ المُرسَلِ، فإنَّ العلمَ العمليَّ إذا أُمِرَ بهِ لم يُرَدْ منهُ العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّه مَقصودٌ بالعرضِ، والمقصودُ بالذّاتِ هو الإيمانُ، بقرينةِ السّياقِ، والعلاقةُ هي اللُّزومُ؛ بمعنى: ذَكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، فالمرادُ هو العلمُ الّذي يَلزَمُ منه الإيمانُ، وإنْ كانَ المرادُ مِنَ العلمِ مجازَهُ، فيكون كنايةً عنِ الثّباتِ على علمِهم؛ أي: اثبتوا على علمِكُم، بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ بعلمِ اللّه، واثبتوا على التّوحيدِ، أو ازدادوا علمًا إلى علمِكُم، وازدادوا يقينًا في توحيدِ اللّه، وعُبِّرَ بهِ للإيذانِ بأنَّ ما عداهُ مِن مَراتبِ العلمِ ليسَ بعلمٍ، لكنْ لا للإشعارِ بانحطاطِ تلكَ المَراتبِ بل بارتفاعِ هذهِ المَرتبةِ[1].

دلالةُ ﴿أَنَّمَآ﴾:

تعظيمُ شأنِ القرآنِ علمًا وعملًا؛ لِنزولِهِ بعلمِ اللهِ

﴿أَنَّمَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ تفيدُ الحصرَ، بمعنى: ما أُنزِلَ إلّا مُلتَبِسًا بعلمِهِ تعالى لا بعلمِ غيرِهِ[2]؛ أي: حَصْرَ أحوالِ القرآنِ في حالِ إنزالِهِ بأنَّه مُلتَبِسٌ بعلمِ اللّه، وفائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَنَّمَآ﴾ هو أنَّه لمّا زَعَمَ الكفّارُ أنَّ القرآنَ مُفترًى، ونسبوهُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/137، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

إلى رسولِ الله ﷺ جاءَ بـ ﴿أَنَّمَآ﴾ ليرُدَّ عليهِم قولَهُم[1]، وينفيَ افتراءَه، ويثبتَ إنزالَهُ بعلمِ الله، ونفيَهُ عن علمِ غيرِهِ سبحانَهُ، فالأداةُ تفيدُ قصرَ القلبِ.

مناسبةُ بناء الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يسمَّ فاعله:

قولُهُ: ﴿أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، جاءَ الفعلُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ لمناسبتِهِ للفعلِ في قولِهِ: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، إذ أُعيدَ إليه الضَّميرُ في قولِهِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، ولأنَّ المقصودَ بالنَّظرِ هو المُنزَّلُ، وهو القرآن الكريم.

القرآن أعرفُ المعارفِ

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

الباءُ هنا للمُلابسةِ؛ بمعنى: أنَّه ما أُنزِلَ إلّا مُلتبِسًا بعلمِ الله؛ للإيذانِ بأنَّ القرآنَ نزلَ محفوظًا بعلمِ الله، وأنَّ معانيهِ ومبانيهِ هي بعلمِهِ تعالى، فإذا كانَ مُلتبِسًا بعلمِهِ على معنى حصرِ القلبِ، فمعناهُ: لا يعلمُ حقيقةَ العلمِ به إلّا هو؛ للإشعارِ بعظمِ مزايا القرآنِ الّتي بها يقعُ الإعجازُ والتَّحدِّي[2].

نزلَ القرآنُ وكلُّ معانيهِ ومبانيهِ بعلمِ اللهِ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

ليسَ المرادُ بهذه الجملةِ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه أنزلَهُ، وأنَّه مَعلومٌ لهُ، كما يعلمُ سائرَ الأشياءِ، فإنَّ كلَّ شيءٍ معلومٌ له سبحانَهُ مِن حقٍّ وباطلٍ، وإنَّما المعنى: إنزالُهُ مُلتبِسًا بعلمِهِ سبحانَهُ، فإذا كانَ إنزالُهُ مُشتمِلًا على علمِهِ فيكون آيةَ كونِهِ مِن عندِهِ، ففيه كنايةٌ بذكرِ الملزومِ وإرادةِ اللّازمِ؛ أي: فإذا كانَ مِن عندِهِ فإنَّهُ حقٌّ وصدقٌ، وليسَ مُفترًى[3].

الاستدلالُ على حقّيّةِ القرآنِ، بأنَّه أُنزِلَ بعلمِ اللهِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

لم يقُلْ: (أنَّما أُنزِلَ بقدرةِ الله) بل قال: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾

كلُّ ما في القرآنِ مِن ألفاظٍ، هو مُتّصِلٌ بعلمِ اللهِ وحكمتِهِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/353.
(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/138.
(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 200.

لِمَا يُشعِرُ به الكلامُ مِن أنَّه لا يقدرُ أحدٌ على إنزالِ القرآنِ غيرُ اللّه تعالى، فلمّا قيَّدَ الإنزالَ بعلمِ اللّه أفادَ أنّ نفيَ العلمِ بالشّيءِ يَستلزمُ نفيَ القدرةِ؛ لأنَّه لا يقدرُ أحدٌ على ما لا يعلمُ، فأفادَ إثباتَ إنزالِهِ بعلمِ اللّه ونفيِهِ عن غيرِهِ سبحانَهُ أنَّه أُنزِلَ بعلمِ اللّه، وأنَّه لا يقدرُ أحدٌ عليه سوى اللّه تعالى؛ لظهورِ عجزِهم وعجزِ مَن استعانوا به[1]، والظّاهرُ أنَّ سببَ تقييدِ الإنزالِ بالعلمِ هو تقريرُ التّحدِّي بالقرآنِ وإثباتُ إعجازِه؛ لأنَّ فيه إيذانًا بأنَّ ما في القرآنِ مِن بديعِ النّظمِ وسرِّ المعاني لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمثلِهِ؛ لأنَّ كلَّ ما فيه مِن ألفاظٍ مُفردةٍ ومنظومةٍ ومعانٍ مَرسومةٍ مُلتَبِسٌ بعلمِ اللّه، فالقرآنُ قائمٌ على علمِ اللّه في نظمِهِ ومعانيه.

بلاغةُ التّعريضِ بـ ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

لم يقُلْ: (مِنْ عندِ اللّه)؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ تعريضٌ بقولِهم: (افْتَراهُ)؛ أي: هو بعلمِ اللّه، ولم يفترِه على اللّه، وفيه إشارةٌ إلى علمِهِ بقولِهم الّذي قالوهُ، ففيهِ توبيخٌ وتهديدٌ لَهُم، مع دلالتِهِ على أنَّه مِن عندِ اللّه[2].

دقّةُ اختيارِ اللّفظةِ؛ لِلتّعريضِ بقولِ الكافرينَ، والتّنديدِ بافترائِهِم المشينِ

مناسبةُ العطفِ:

في قوله: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أفادَ العطفُ بالواو أنَّ العلمَ؛ بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ بعلمِ اللّه، سببٌ للعلمِ بتوحيدِ اللّه والإيمانِ به؛ لاشتمالِ القرآنِ على معاني الإيمانِ، ولِما يتضمّنُهُ مِن كونِه مُعجزًا في بلاغتِهِ ونظمِهِ، فلمّا ثَبَتَ كونُ القرآنِ حقًّا ثَبَتَ كونُ مُحَمَّدٍ ﷺ صادقًا في دَعوَى الرِّسالةِ، ولمّا ثَبَتَ كونُهُ مُحقًّا في دَعوى الرّسالةِ ثَبَتَ قولُهُ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وأيضًا لأنَّهُم إذا عَجَزوا عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، هُم ومَنِ استنصروهُم، فقد ظَهَرَ أنَّ مَنِ

ثبوتُ حقّيّةِ القرآنِ، يدُلُّ على ثبوتِ نبوَّةِ النّبيِّ ﷺ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/42، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.
(2) البسيلي، نكت وتنبيهات: 2/229.

استَنصَروهُم مِن آلهتِهم وغيرِهم لا يَستَطيعونَ نَصرَهُم، فَثَبَتَ انتفاءُ الإلهيَّةِ عن سوى اللّه تعالى، فيكونُ العطفُ مِن عطفِ المُسبَّبِ على السّببِ، أو المعلولِ على العلَّةِ[1]، وذهبَ البسيليُّ إلى أنَّ ذِكرَ المعطوفِ ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جاءَ على سبيلِ الاحتراسِ والتّكميلِ؛ لأنّهُ إذا لم يكُنْ إلهٌ غيرُهُ تعيّنَ كونُهُ مِن عندِهِ، إذْ لا يلزمُ مِن إنزالِهِ بعلمِهِ كونُهُ مِن عندِهِ إلّا بعدَ ثبوتِ الوحدانيّةِ[2].

بلاغةُ التّعبيرِ في جملةِ توحيدِ الألوهيّةِ:

يجري قولُهُ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مَجرَى التَّهديدِ، كأنَّهُ قيلَ: لَمّا ثَبَتَ بهذا الدَّليلِ كَونُ محمَّدٍ ﷺ صادقًا في دَعوَى الرِّسالةِ، وعَلِمتُم أنَّهُ لا إلهَ إلّا اللّه، فكونوا خائفينَ مِن قَهرِهِ وعذابِهِ، واترُكوا الإصرارَ على الكُفرِ، واقبَلوا الإسلامَ، كما أنَّ فيه إيذانًا بأنَّ مِن خصائصِ الإلَهِ أنْ يَعلَمَ ما لا يَعلَمُهُ غيرُهُ، وأنْ يَعجِزَ كُلُّ مَن عَداهُ عَن مِثلِ ما يَقدِرُ هوَ عليهِ، كما ظَهَرَ بهذا التَّحدِّي عَجزُكُم وعَجزُ آلِهَتِكُم وغيرِهِم عَنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ[3].

الـعـجـزُ عـن معارضةِ القرآنِ يُـوجِـبُ العلمَ بتوحيدِ اللـهِ، وتـركِ الإصـرارِ على الكفرِ

دلالةُ ﴿وَأَن﴾ في جملةِ التّوحيدِ بصفةِ الألوهيّةِ:

﴿وَأَن﴾ هي المخفَّفةُ مِنَ الثّقيلةِ فيكونُ اسمُها ضميرَ الشّأنِ محذوفًا؛ لِيفيدَ الكلامُ تعظيمَ شأنِ خبرِ ﴿وَأَن﴾.

تـعـظـيـمُ شـأنِ الـلـهِ، وتـبـريـزُ مَظهَرِ ألوهيّتِهِ

دلالةُ الفاءِ في مَطلَعِ جملةِ الاستفهامِ:

قولُهُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أفادَتِ الفاءُ معنى التّرتُّبِ والسّببيّةِ، فإذا كانَ الخطابُ للكافرينَ فتفيدُ الفاءُ تنبيهَهُم على قيامِ مُوجِبِ إسلامِهِم بتقريرِ الحجّةِ وزوالِ العذرِ بما ادّعوهُ مِنَ الافتراءِ؛ أي: فهل أنتُم داخلونَ في الإسلامِ بعدَ قيامِ الحجّةِ، وإذا كانَ الخطابُ

تنبيهُ الكافرينَ على قيامِ مُوجِبِ الإسلامِ بظهورِ الحجّةِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/326، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

(2) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/229.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/40.

للرّسولِ ﷺ والمؤمنين معه فتكونُ الفاءُ جوابَ شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديرُهُ: إذا تحقَّقَ إعجازُهُ عندَكُم، فهل أنتُم ثابتونَ على الإسلامِ راسِخونَ فيه مُخلِصونَ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿فَهَلْ﴾:

اجتماعُ التّرغيبِ والتّرهيبِ والتّنبيهِ في أسلوبِ الاستفهامِ

إنْ كانَ الخطابُ للكافرينَ فيكونُ الاستفهامُ على معنى الطّلبِ المُضمَّنِ معنى التّحريضِ على الدّخولِ في الإسلامِ، والحثِّ عليه بدونِ تأخيرٍ، بأبلغِ عبارةٍ، فيدخُلُ فيه الإذعانُ لكونِ القرآنِ من عندِ اللّه تعالى دخولًا أوّليًّا، أو يكونُ الاستفهامُ على معنى طلبِ الانقيادِ إلى الحقِّ الّذي هو كونُ القرآنِ من عندِ اللّه تعالى، وتاركون لِما كنتُم فيه مِنَ المُكابرةِ والعنادِ، وفيه تهديدٌ لَهُم إنْ لم يُسلموا، وفيه كذلك تنبيهٌ لَهُم على قيامِ مُوجِبِ إسلامِهم بتقريرِ الحُجّةِ وزوالِ العذرِ بما ادّعوهُ مِنَ الافتراءِ، وإقناطٌ من أن يُجيرَهُم آلهتُهُم من بأسِ اللّه، فَجَمَعَ الاستفهامُ هنا بينَ التّرغيبِ والتّرهيبِ والتّنبيهِ، وإنْ كانَ الخطابُ للمُسلمينَ فيكونُ الاستفهامُ على معنى تقريرِ ما هُم عليه مِنَ الإسلامِ والانقيادِ وطلبِ الزّيادةِ فيه لِتحقُّقِ إعجازِ القرآنِ عندَهُم[2].

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ:

انقطاعُ معارضتِهم للقرآنِ، أكسبَ اليَقينَ بصحَّةِ الإسلامِ

لمّا كانَتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على ثبوتِ مَضمونِها، ودوامِهِ، وتقريرِ المعنى، وتأكيدِهِ، عُبِّرَ بها هنا، ولَم يَقُلْ: (فَهَل تُسلِمونَ)؛ لأنَّ حالَةَ عدمِ الاستجابَةِ لمعارضةِ القرآنِ تُكسِبُ اليَقينَ بصحَّةِ الإسلامِ، فَتَقتَضي تَمَكُّنَهُ مِنَ النُّفوسِ، وذلِكَ التَّمَكُّنُ تدُلُّ عليهِ الجملةُ الاسميّةُ[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/43.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/567، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155 - 156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/250، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مُّسْلِمُونَ﴾:

الإســـــلامُ هـو الانقيادُ لأمرِ اللهِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: (فهل أنتُم مُؤمنونَ) مثلًا؛ لأنَّه إنْ كانَ الخطابُ لِلمشركينَ فيكونُ على معنى طلبِ دخولِهِم في الإسلامِ؛ بمعنى: فهل أنتُم داخلونَ في الإسلامِ، كما أنَّهم لمّا نسبوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه سلَّم افتراءَ القرآنِ كانَ عملُهُم على سبيلِ المُكابرةِ والعِنادِ، فناسبَ أن يخاطبَهُم بلفظٍ يدُلُّ على الانقيادِ لِلحقِّ وتركِ المُكابرةِ، فقالَ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وإنْ كانَ الخطابُ لِلمُسلمينَ فيكونُ على معنى التّرقيةِ في الانقيادِ لأمرِ اللهِ والثّباتِ عليهِ؛ لِيكونَ في مُقابلةِ مُكابرةِ المُشركينَ وعنادِهِم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»